سيرة محدث

سيرة مختصرة للمحدث (الإمام الذهبي رحمه الله)

م.م. سيف إسماعيل الدليمي
تدريسي في كلية العلوم الإسلامية – الجامعة العراقية
وعضو هيئة التحرير

اسمه ومولده ونشأته

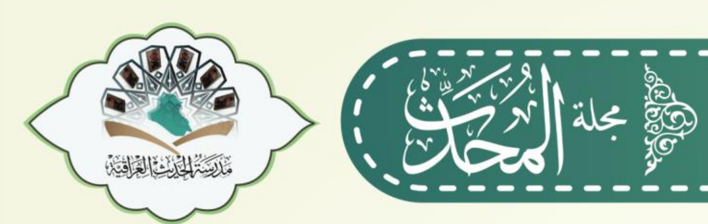
ولد مؤرخ الإسـلام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله الذهبي في شهر ربيع الآخر سنة ٦٧٣ هـ من أسرة تركمانية الأصل، تنتهي بالولاء إلى بني تميم، سـكنت مدينة (ميا فارقين) من أشـهر مدن ديار بكر(١)، ويبدو أن جد أبيه قايماز قضـى حياته فيها، أما والده شهاب الدين أحمد، فقد ولد سنة ٦٤١ هـ تقريبا، وعدل عن صنعة أبيه إلى صنعة الذهب المدقوق، فبرع بها، وتميز، وعرف أبوه بالذهبي حينها، وعرف إمامنا محمد بـ(ابن الذهبي)، نسبة إلى صنعة أبيه، وكان هو يقيد اسمه " ابن الذهبي"، ويبدو أنه اتخذ صنعة أبيه مهنة له في أول أمره، لذلك عرف عند بعض معاصريه بـ" الذهبي" مثل الصفدي، و السبكي، وابن كثير، رحمهم الله تعالى .

طلبه للعلم:

بدأ وهو بعمر الصبا الحضـور إلى مجالس الشـيوخ ليسـمع كلام بعضـهم، واعتنى بطلب العلم حينما بلغ الثامنة عشـرة من عمره، وتوجهت عنايته إلى ناحيتين رئيسـتين هما: القراءات، والحديث الشريف.

---

(١) تقع محافظة ديار بكر على ضفاف نهر دجلة جنوب شرقي تركيا، وتعد الحد الشمالي الشرقي للأقاليم السورية .



أما علم القراءات: فاهتم رحمه الله تعالى بقراءة القرآن الكريم، والعناية بدراسة علم القراءات، فتوجه سنة ٦٩١ هـ إلى شيخ القراء جمال الدين الفاضلي، فشرع عليه بالجمع الكبير، وكان الفاضلي قد صحب الشيخ السخاوي المتوفى سنة ٦٤٣ هـ، الذي انتهت إليه رياسة الإقراء في زمانه، وجمع عليه القراءات السبع، ولكن الإمام الفاضلي أصيب بطرف من الفالج، وينتهي الذهبي عليه إلى أواخر سورة القصص، ثم يموت سنة ٦٩٢ هـ، وتظل قراءة الذهبي عليه ناقصة، إلا أنه كان في أثناء شروعه في القراءة على الشيخ الفاضلي قد شرع في الوقت نفسه على الشيخ جمال الدين أبي إسحاق إبراهيم بن غالي المقرئ الدمشقي تـ (٧٠٨ هـ) وقرأ ختمة جامعة لمذاهب القراء السبعة بما اشتمل عليه كتاب " التيسير" للداني، وكتاب " حرز الأماني " للشاطبي على ابن جبريل المصري نزيل دمشق، وما لبث الذهبي أن أصبح على معرفة جيدة بالقراءات، وأصولها ومسائلها، وهو لما يزل فتى لم يتعد العشرين من عمره حتى كتب في سنة ٦٩١ هـ" المقدمة في التجويد" عن مؤلفها المقرئ المجود أبي عبد الله التلعفري المتوفى سنة ٦٩٦هـ.

أما في علوم الحديث : ففي الوقت نفسه كان الذهبي، وهو في الثامنة عشرة من عمره، قد مال إلى سماع الحديث، واعتنى به عناية فائقة وانطلق في هذا العلم حتى طغى على كل تفكيره، واستغرق كل حياته بعد ذلك، فسمع ما لا يحصى كثرة من الكتب والأجزاء، ولقي كثيرا من الشيوخ والشيخات، وأصيب بالشره في سماع الحديث وقراءته، ورافقه ذلك طيلة حياته، حتى كان يسمع من أناس قد لا يرضى عنهم كما نص هو على ذلك .

رحلاته في طلب الحديث:

كان الذهبي يتحسر على الرحلة إلى البلدان الأخرى، لما لذلك من أهمية بالغة في تحصيل علو الإسناد، وقدم السماع، ولقاء الحفاظ، والمذاكرة لهم، والاستفادة عنهم إلا أن والده لم يشجعه على الرحلة، بل منعه في بعض الأحيان، إذ لم يكن الذهبي ابنا عاقا يخالف إرادة والده، لا سيما أن آداب طلب العلم تقتضي استئذان الأبوين في الرحلة، ووجوب طاعتهما وبرهما، قال في ترجمة أبي الفرج البغدادي الحنبلي شيخ المستنصرية المتوفي سنة ٦٩٧ هـ: (**وانفرد عن أقرانه، وكنت أتحسر**

على الرحلة إليه، وما أتجسر خوفا من الوالد، فإنه كان يمنعني)[١]))، وقال: (**لما مات شيخنا الفاضلي، فازددت تلهفا وتحسرا على لقيه، ولم يكن الوالد يمكنني من السفر**)[٢])).

والذي يبدو أنه كان وحيد أبيه، أو كان هو البارز بين أبنائه في الأقل، بحيث كان يخاف عليه هذا الخوف كله، ويظهر من الروايات أن والده قد سمح له بالرحلة حينما بلغ العشرين من عمره، وذلك سنة ٦٩٣ هـ، على أنه سمح له برحلات قصيرة لا يقيم في كل منها أكثر من أربعة أشهر في الأغلب، ويرافقه فيها بعض من يعتمد عليهم، وكانت رحلاته داخل البلاد الشامية، ورحل بعد ذلك إلى حلب، وأكثر فيها عن علاء الدين الأرمني، ثم الحلبي، قال: " **رحلت إليه، وأكثرت عنه، ونعم الشيخ كان دينا ومروءة وعقلا وتعففا** "، وسمع من جملة من شيوخها وسمع ببلدان عديدة منها: حمص، وحماة، وطرابلس، والكرك، والمعرة، وبصرى، ونابلس، والرملة، والقدس، وتبوك وغيرها، وكان للبلاد المصرية نصيب من رحلاته، والتي كانت من أبرز رحلاته المبكرة، وفي سنة ٦٩٨ هـ، أي بعيد وفاة والده رحل الذهبي للحج وسمع هناك بمكة وعرفة ومنى والمدينة وغيرها من مجموعة من الشيوخ.

صلاته الشخصية وأثرها في تكوينه الفكري:

اتصل الذهبي اتصالا وثيقا بثلاثة من شيوخ ذلك العصر وهم جمال الدين المزي الشافعي ت ٧٤٢ هـ، وتقي الدين ابن تيمية الحراني ت ٧٢٨ هـ، وعلم الدين محمد البرزالي ت ٧٣٩ هـ، وترافق معهم طيلة حياتهم حيث كان أصغر رفاقه سنا، وكان المزي أكبرهم، وكان بعضهم يقرأ على بعض، فهم شيوخ وأقران في الوقت نفسه، ويذكر الذهبي أن علم الدين البرزالي هو الذي حبب إليه العناية بالحديث النبوي الشريف، وقد تأثر تاثرا بالغا برفيق دربه وشيخه ابن تيمية رحمهم الله تعالى حيث

---

(١) و (٣) : معرفة القراء: ص ٥٥٦.

قال بعد أن مدحه مدحا عظيما: **لو حلفت بين الركن والمقام لحلفت، أني ما رأيت بعيني مثله – أي ابن تيمية –** ، **ولا والله ما رأى هو مثل نفسه في العلم** . قال تاج الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١ هـ: (**إن هذه الرفقة المزي والذهبي والبرزالي أضر بها أبو العباس ابن تيمية إضرارا بينا وحملها من عظائم الأمور أمرا ليس هينا، وجرهم إلى ما كان التباعد عنه أولى بهم**) .

وقد حرم الذهبي بسبب آرائه ورفقته تلك من تولي أكبر دار للحديث بدمشق، هي دار الحديث الأشرفية التي شغرت مشيختها بعد وفاة رفيقه المزي سنة ٧٤٢ هـ، حيث أشار قاضي القضاة علي بن عبد الكافي السبكي أن يعين الذهبي لها، فتكلم الشافعية بأن الذهبي ليس بأشعري، وأن المزي ما وليها إلا بعد أن كتب بخطه، وأشهد على نفسه بأنه أشعري، واتسع النقاش بينهم، ورفض الشافعية أن يتولاها الذهبي بعد أن جمعهم نائب الشام ألطنبغا بالرغم من إلحاح السبكي، ولم يحسم الأمر إلا بتولية السبكي نفسه، إضافة إلى موقفه من بعض المتصوفة لا سيما طائفة الأحمدية، أتباع أحمد الرفاعي، إلا أنه رغم ذلك كله ترأس مشيخة دار الحديث بتربة أم الصالح وغيرها، والتي كانت من كبريات دور الحديث بدمشق آنذاك، وقد اتخذها الذهبي سكنا له وبقي فيها إلى حين وفاته، ودار الحديث الظاهرية، وتولى تدريس الحديث بالمدرسة النفيسية وإمامتها عوضا عنه، وكتب له تلميذه صلاح الدين الصفدي توقيعا بذلك، وفي السنة نفسها كمل تعمير دار الحديث والقرآن التنكزية، وباشر مشيخة الحديث بها رحمه الله تعالى، ومن دور الحديث التي تولاها الذهبي دار الحديث الفاضلية، وحينما توفي الذهبي سنة ٧٤٨ هـ كان يتولى مشيخة الحديث في خمسة أماكن (دار الحديث العروية)، و (دار الحديث النفيسية)، و (دار الحديث التنكزية)، و (دار الحديث الفاضلية بالكلاسة)، و (دار تربة أم الصالح).

وفاته وأولاده :

أضر الذهبي قبل موته بأربع سنين أو أكثر، بماء نزل في عينيه، فكان يتأذى ويغضب إذا قيل له: لو قدحت هذا لرجع إليك بصرك، وكان يقول: ليس هذا بماء، وأنا أعرف بنفسي، لأنني ما زال بصري ينقص قليلا قليلا إلى أن تكامل عدمه.

وتوفي بتربة أم الصالح ليلة الإثنين ثالث ذي القعدة قبل نصف الليل سنة ٧٤٨ هـ، ودفن بمقابر باب الصغير، وحضر الصلاة عليه جملة من العلماء كان من بينهم تاج الدين السبكي، وقد وترك الذهبي ثلاثة من أولاده عرفوا بالعلم هم:

١. ابنته أمة العزيز .

٢. ابنه عبد الله أبو الدرداء.

٣. ابنه شهاب الدين عبد الرحمن أبو هريرة .

وترك من المصنفات العلمية في شتى العلوم الشرعية كالحديث وعلومه، وآدابه، والسير، والتراجم، والفقه، والعقيدة، والمنوعات، وغيرها ما يزيد على (٢٠٠) مصنف، التي لا يسع المكان لذكرها مما قد تجاوز بعض منها الخمسين جزءا للمصنف الواحد ك (تاريخ الإسلام)، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة، واسكنه فسيح جنانه، ونفعنا والمسلمين بعلمه إلى يوم الدين، ولا يسمح المقام لأمثالي ان يصف أمثاله إلَّا استئناساً فأقول :

تركـتَ لنـا تُراثـاً كالمسـمَّى صَـرتَ بـه الشَّـوافعَ مُهتـدينا
وكنـتَ إلـى المحـدِّث خيـرَ عـونٍ مُصـنَّفكم بـدا حـبلاً متينـا
مُحمـدٌ ابـن قايمـاز المسـمَّى بشـمسِ الـدِّينِ ذهْبـيُ العرينـا

وصلِّ اللهم على محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا

